أشاهر

وفاء صحراوي / الجزائر

ذات صباح ، و أنا بين اليقظة و الأحلام تائهة ، تسللت إلى غرفتي تنسج خيوط نورها الذهبية في صمت ، إنها شمس تشرين الكاذبة.

غادرت سريري بعدما لامست حبالها أطرافي، و نزعت عني ثوب الخمول و الكسل،ثم رميت بنفسي في هاوية المطبخ ، أحضر ما من شأنه أن يسد بعضا من جوعي.

و بعد إنهائي وجبتي و ارتشافي لسمرائي ، ها أنا مستعدة لشق سبيل الأمل كعادتي، تثاقلت خطاي فجو الخريف الكئيب لا يروق ابتسامتي ...

خرجت و أنا أرفع الهمة و باستفزاز الريح غير مهتمة ؛ حتى شد انتباهي صوت على مسامعي غريب ، أ تراه وريف أوراقك يا شجرة التين ؟ فهزت بغصنها : كلا لم يحن الحين

أخذ بي ذلك الصوت ساعيا ، بجانب أريج السوسن لمحت ما لم يكن عاديا؛ سلة صغيرة ... رحت إليها و أنا أئول ،ذاك صوت جفجفة ثوب متناغما باستهلال رضيع ؛ ويلي... ما أنا بفاعلة !

أزحت الغطاء ، فوجدت ملاكا لم يبلغ من ورده يومين ، و فوق صدره رسالة جاء فيها : " هي أمانة في أعناقكم ، خذوها ابنة لكم ، فأنا قد حجز الموت لي مكانا،

و ما هي إلا أيام حتى أبلغه ... غطوا مكاني و اجعلوا دعاءكم يبلغ عنواني.."

أدخلتها و أنا بالأحضان أضمها ، و بعد تعمقي في سيماها ،تجرأت أن أسميها ' أشاهر' ؛ تيمنا ببياض النرجس الذي فاقته بياضا ،و دنوت منها بصوت رماج أغرد على مسامعها حتى غفت ، فقبلت وجنتها و همست لها : لا تحزني يا أشاهر ، فالقلب لك محب و الجفن ساهر.

توالت الأيام كأنها ومضة من برق ،و مضت أشاهر تكبر على مرآى من عيني ،و أنا في حرصي عليها أشد من أنثى الوعل ، كنت لها الصديقة و الأم و الرفيقة ، و كانت لي الخليلة و البنت و الصاحبة الجميلة .

كنت كل ليلة لها أروي، و كانت بالود و الحب لقلبي تروي ،و كنت في أمومتي لها أرجو من التواب و أحتسب الأجر و المغفرة و الثواب .

ها هي اليوم أشاهر تلامس العشرين ،و في فؤادي لازالت ملاك ذاك اليوم من تشرين.

أصبحت مائسة القد منحوتة الخصر ،ديجورة الشعر بيضاء الجلد ،ذات عيون واسعات ، كحل ،بأهداب ناصعات ، يزينها ثغر صغير و سن أثير ، يفتن بحسنها الصغير قبل الكبير صارت زهرة في ريعان شبابها ، و صارت الذئاب لها مترصدة ،و صرت في ذلك أخشى عليها حتى من ظلها.

تفوقت في دراستها و حصدت أعلى الدرجات في دفعتها ،و اقتنصت منحة الدراسة بالخارج من بين كل أقرانها ،لكني أبيت و آبى ابتعادها عني ، و أنا التي ليس لي سواها قرة عيني ،و ليس لها سواي أما و

عائلة...

أخذنا النقاش إلى متاهات الكلام ،فرجمتها بأقسى عبارات الأمومة وجعا ، و رمتني بأشد سهام البنوة حدة ، و ها نحن لا نزال في أخذ و رد ،و جزر و مد إلى أن خارت بنا القوى و استسلمنا للصمت ، و بنات العين تنوب عن ألسنتنا بالكلام .

لزمت كل منا سريرها و الوسن غائب عن المقل ،و ضربات القلب تتوالى بين الأمل و الألم...

كانت الليلة عسيرة كأنما هي دون قمر ، و النجوم عن سمائها غائبات و نسيم ليلها كأنه شظى من جمر ؛ و في اليوم التالي بزغت الشمس و كأنها لكلينا مخاصمة ، و مع رمشة عيني الأولى رمقت حقائب مجهزة و بجوارهن إبنتي أشاهر.... ما هذا يا أشاهر ! أ ضيوفا زارونا مع بكرة الصبح ؟ كلا يا أمهاه إنها حقائبي ،موعد طائرتي بعد أربع ساعات من الآن و لم أشأ السفر دون وداعك ، من هول الصدمة غاب عن لساني النطق ،و نزلت دموع من حميم رسمت طريق الأسى على خدي ، و سقطت على شفتي المبتسمة و ابتسامة الحزن أصعب من ابتسامة الفرح ،و صرت حينها شبه غائبة عن الوعي لا أعي ما يدور من حولي ....سوى سماعي لصوت أشاهر يودعني و شفاهها تقبل جبيني و يدي تشد على يديها، و صوت سيارة توقفت عند الباب ، كانت سيارة الأجرة التي أقلت ابنتي !

مضى على سفرها الآن سنة من الدهر و بضعة شهور ،كنا نتواصل عبر الهاتف لا أكثر ،لا هي كانت تستطيع القدوم بسبب دراستها و لا أنا استطعت التعود على غيابها ، بت في في غيابها منهارة الأعصاب قليلة الكلام ،اتخذت المواجد من فؤادي موطنا ، و صار البيت مكهفرا حيطانه شاحبة و صداه يردد صوت الأسى بعدما كان يرد إلينا ضحكاتنا المتعالية ،و تاهت روحي فيمن حسنت وجها و أسبارا ،و بت أرجو في بعدها بدل الصبر أصبارا....

لم أكن راضية على تلك الحال ،فدعوت مغير الأحوال من حال إلى حال ،و برحمة واسعة منه و فضل عظيم ،استرجعت بعضا من عافيتي و استأنفت حياتي ،و عدت تلك المرأة الوحيدة و المحاربة ،و المثابرة و القوية ،و جددت حياتي و قويت علاقتي بابنتي أكثر ،و بعد أن كنت على فراقها باكية أصبحت على نجاحها شادية ، و ما هي إلا أسابيع كانت قد مضت على تخرجها ،حتى استفقت ذات صباح على تغريد الشروق و رقص الشجر ،و أزاح عني شجون ذلك الصوت ثقل السهر ،بصوت عذب صداح نادتني : أماه ها أنا لأحضانك قد عدت ، تبسمت و قلت : إني لا أرضى بالنزر و أقتنع ،فتقدمي أضمك بنيتي حتى الشبع .

.....